Journal of Al-Farabi for Humanity Sciences Volume (8), Issue (6) December (2025)

ISSN: 2957-3874 (Print)
Journal of Al-Farabi for Humanity Sciences (JFHS)
https://iasj.rdd.edu.iq/journals/journal/view/95
مجلة الفارابي للعلوم الإنسانية تصدرها جامعة الفارابي

إشكالات التعامل مع نصوص القرآن في الفكر الحداثي

م.م مشتاق محمد عبد عودة

المديرية العامة للتربية في محافظة الانبار

Problems of dealing with the texts of the Qur'an in modernist thought.

Assistant Lecturer Mushtaq mohammed Abed
General Directorate of Education in Al-Anbar Governorate
Alqayssei1985@gmail.com

المستخلص:

يتناول هذا البحث إشكالات التعامل مع نصوص القرآن في الفكر الحداثي، من خلال دراسة الإطار المفاهيمي لعلوم القرآن والفكر الحداثي، ثم بيان أبرز الانحرافات المنهجية والتأويلية التي وقع فيها الحداثيون، مثل إلغاء قداسة النص، واعتماد المناهج الهرمنيوطيقية الغربية، والتأويل الرمزي المفرط، والإسقاطات المعاصرة والانتقائية. وفي المقابل، قدّم البحث مناقشة نقدية وضوابط للفهم الصحيح للنص القرآني، بالرجوع إلى القواعد التفسيرية المستمدة من علوم القرآن، والجمع بين ظاهر النص وروحه وفق منهج السلف، مع تحديد الضمانات العلمية التي تكفل سلامة التفسير. وخلصت الدراسة إلى أنّ التوازن بين الأصالة والمعاصرة، مع الالتزام بالضوابط المنهجية، هو السبيل الأمثل لحماية النص القرآني من القراءات المنحرفة وضمان فاعليته الحضارية.**الكلمات المفتاحية:إشكالات التأويل، النص القرآني، الفكر الحداثي، القراءة المعاصرة، hermeneutics (الهرمنيوطيقا)، التجديد الديني، مناهج التفسير الحديثة، النقد الفكري، الخطاب القرآني.**

Abstract:

This research addresses the problems of dealing with Qur'anic texts in modernist thought, by examining the conceptual framework of Qur'anic sciences and modernist thought. It then highlights the most prominent methodological and interpretive deviations that modernists have fallen into, such as abolishing the sanctity of the text, adopting Western hermeneutic approaches, excessive symbolic interpretation, and contemporary and selective projections. In contrast, the research presented In contrast, the study presented a critical discussion and guidelines for a correct understanding of the Qur'anic text, using interpretive rules derived from Qur'anic sciences and combining the apparent meaning and spirit of the text in accordance with the approach of the early scholars, while identifying the scientific safeguards that ensure sound interpretation. The study concluded that *:* Striking a balance between authenticity and modernity, while adhering to methodological controls, is the best way to protect the Qur'anic text from deviant interpretations and ensure its cultural effectiveness.**Keywords:** Interpretation Issues, Quranic Text, Modernist Thought, Contemporary Reading, Hermeneutics, Religious Renewal, Modern Exegesis Methods, Intellectual Criticism, Quranic Discourse.

المقدمة

يُعَدُّ القرآن الكريم النصَّ المؤسِّس للهوية الإسلامية، ومصدر التشريع والهداية، والمرجع الأعلى لفهم العقيدة والشريعة والقيم الحضارية للأمة. ومنذ نزوله، حَظِيَ بعناية فائقة من علماء المسلمين الذين أسّسوا علومًا متنوّعة لضبط دلالاته وصيانة معانيه، كاللغة، والبلاغة، وأصول الفقه، وعلوم القرآن، وأصول التفسير. وقد كان الهدف من ذلك ضمان سلامة التعامل مع النص القرآني، وحماية الأمة من الانحراف في الفهم أو التوظيف الخاطئ للنصوص.إلا أنّ القراءات الحداثية التي ظهرت في القرنين الأخيرين قد مثّلت تحوّلاً في طريقة التعامل مع النصوص القرآنية، إذ استندت إلى مرجعيات فكرية غربية، واستحضرت أدوات نقدية وأبستمولوجية تنتمي إلى سياقات مغايرة للنص الإسلامي. وقد تأثّر هذا الاتجاه بمناهج النقد التاريخي، والتحليل اللساني الحديث، والهرمنيوطيقا، وما بعد البنيوية، وغيرها من المقاربات التي نشأت في بيئة لها خصوصياتها الفكرية والدينية.

ومن ثمّ، حملت هذه القراءات رؤيةً جديدةً للنص القرآني، لا بوصفه خطابًا مُلزِمًا ومصدرًا للتشريع، بل بوصفه نصًّا تاريخيًا أو إنتاجًا ثقافيًا خاضعًا لقوانين التأويل المفتوح.هذا التحوّل أثار جملةً من الإشكالات المنهجية والموضوعية، تمثّلت في الانتقائية في التعامل مع الآيات، وتغييب سياقاتها، وإعادة تعريف الوحي، وإقصاء الضوابط التفسيرية التي رسّخها التراث الإسلامي. كما أدّى إلى نتائج فكرية واجتماعية خطيرة، من أبرزها زعزعة المرجعية الشرعية، وإعادة تشكيل المفاهيم القرآنية وفق أفق حداثي لا يعبِّر عن مقاصد النص الأصيلة.وتكمن أهمية هذا البحث في أنّه يسلِّط الضوء على هذه الإشكالات من خلال ربطها بجذورها الفكرية والفلسفية، ثم مقارنتها بالمنهج التفسيري الأصيل الذي اعتمدته الأمة عبر قرونها. كما يسعى إلى بيان أثر هذه القراءات في الفكر الإسلامي المعاصر، وكيف أسهمت في إثارة جدل واسع بين الباحثين حول حدود التجديد المشروع، والفصل بين الاجتهاد المنضبط والانفلات الفكري.

أهداف البحث:

١. إبراز مكانة القرآن الكريم وعلومه في ضبط الفهم الصحيح للنصوص.
٢. تتبّع نشأة الفكر الحداثي وتحديد أبرز مرجعياته ومفاهيمه المؤثرة في قراءة النص القرآني.
٣. تحليل ضوابط التفسير في التراث الإسلامي ومقارنتها بالمنهج الحداثي.
٤. كشف أهم الإشكالات المنهجية والموضوعية التي اعترت تعامل الحداثيين مع النص القرآني.
٥. بيان أثر تلك الإشكالات على المرجعية الإسلامية والفكر المعاصر.

منهجية البحث:

يعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي في دراسة المفاهيم والمرجعيات، مع الاستفادة من المنهج المقارن عند عرض منطلقات الفكر الحداثي مقابل ضوابط التفسير التراثية. كما يوظّف المنهج النقدي لرصد الإشكالات وتقييمها في ضوء النصوص الشرعية والمصادر العلمية المعتبرة، بما يتيح تقديم رؤية متوازنة تجمع بين التأصيل الشرعي والتحليل الفكري.

هيكلية البحث:

مقدمة **المبحث الأول – الإطار المفاهيمي والمصطلحي** المطلب الأول: التعريف بعلوم القرآن وأهميتها في ضبط الفهم.المطلب الثاني: الفكر الحداثي: النشأة والمفاهيم والمرجعيات.المطلب الثالث: ضوابط التعامل مع النص القرآني في التراث التفسيري.**المبحث الثاني – أبرز الإشكالات المنهجية في قراءة القرآن عند الحداثيين** المطلب الأول: إلغاء قداسة النص وتحويله إلى نص بشري.المطلب الثاني: القراءة السياقية المتحررة من قواعد اللغة العربية.المطلب الثالث: اعتماد المناهج الهرمنيوطيقية الغربية دون نقد.**المبحث الثالث – الإشكالات التأويلية والتطبيقية** المطلب الأول: التأويل الرمزي المفرط وإلغاء المعنى الظاهر.المطلب الثاني: إسقاط القراءات المعاصرة على النص دون ضابط.المطلب الثالث: الانتقائية في التعامل مع النصوص لخدمة أيديولوجيا معينة.**المبحث الرابع – المناقشة النقدية وضوابط الفهم الصحيح** المطلب الأول: القواعد التفسيرية المستمدة من علوم القرآن.المطلب الثاني: أهمية الجمع بين ظاهر النص وروحه وفق منهج السلف.المطلب الثالث: الضمانات العلمية لسلامة التعامل مع النص القرآني.خاتمة

المبحث الأول الإطار المفاهيمي والمصطلحي

المطلب الأول: التعريف بعلوم القرآن وأهميتها في ضبط الفهم

لقد اعتنى علماء الأمة منذ العصور الأولى بضبط الفهم الصحيح للقرآن الكريم، فأفرزوا منظومة متكاملة من العلوم عُرفت بـ علوم القرآن، وهي العلوم التي تتناول كل ما يتصل بالقرآن من حيث نزوله وجمعه، وأسباب نزوله، ومكيه ومدنيه، وناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، وإعجازه وقراءاته، وغيرها من القضايا التي تعين المفسِّر والباحث على إدراك المعاني على وجهها الصحيح.وقد عرَّف الزركشي علوم القرآن بأنها: "البحث في أحوال القرآن الكريم من حيث نزوله، وجمعه، وترتيبه، وقراءاته، وتفسيره، وأحكامه" (الزركشي،١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، ١/١٦). أما السيوطي فاعتبرها من أشرف العلوم وأعظمها فائدة، إذ تُعين على فهم كلام الله تعالى وتنزيله على الواقع. (السيوطي، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م, ٥٠)وتكمن أهمية هذه العلوم في أنها تؤدي دورًا تأسيسيًا في ضبط الفهم، إذ تمنع الانحراف في التفسير أو التلاعب بالدلالة، وتوفّر المعايير الموضوعية التي التزم بها المفسرون عبر العصور. ومن ثم، فإن أي قراءة للنص القرآني خارج هذا الإطار تكون عُرضة للخلل والانتقائية، كما يظهر بوضوح في المناهج الحداثية التي تتجاوز هذه الضوابط بدعوى التجديد أو التحرر من قيود التراث.

المطلب الثاني: الفكر الحداثي: النشأة والمفاهيم والمرجعيات

يُعَدّ الفكر الحداثي من أبرز التحولات الفكرية التي عرفها العالم منذ القرن الخامس عشر، إذ ارتبط ظهوره بالتحولات الكبرى التي شهدتها أوروبا بعد العصور الوسطى. فقد أسهمت حركة النهضة الأوروبية في إعادة الاعتبار للإنسان والعقل، وإعلاء قيمة الحرية الفردية والبحث العلمي بعيدًا عن سلطة الكنيسة، لتشكل بذلك مرحلة مفصلية في انتقال الفكر الغربي من المرجعية الدينية إلى المرجعية الإنسانية (إسحاق، ،٢٠٠٥، ص١٥).

وقد تكرّس هذا التحول أكثر مع **عصر التنوير** في القرنين السابع عشر والثامن عشر، حيث نادى الفلاسفة – أمثال ديكارت وروسو وفولتير وكانط – بالعقلانية والحرية ونقد الموروث الديني والتقليدي. ثم جاءت الثورة الصناعية لتدعم هذا التوجه، إذ أظهرت أن التقدم المادي مرتبط بقدرة الإنسان على السيطرة على الطبيعة عبر العلم والتجريب (حسين، ٢٠١٠، ص٢٨). ومن هنا بدأ يتبلور مفهوم "الحداثة "باعتبارها مشروعًا حضاريًا شاملاً يروم إعادة صياغة علاقة الإنسان بالعالم، ويؤكد استقلال العقل عن المرجعيات الغيبية.دخلت الحداثة إلى المجال العربي والإسلامي في القرن التاسع عشر مع تزايد الاحتكاك بالغرب، سواء عبر الاستعمار المباشر، أو من خلال البعثات التعليمية وحركة الترجمة. وقد انبهر كثير من رواد النهضة العربية بالتقدم الغربي، فحاولوا استنبات مناهجه الفكرية في بيئتهم. ومن أبرز هؤلاء: رفاعة الطهطاوي، وخير الدين التونسي، وجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده. غير أنّ هذا التفاعل لم يكن على وتيرة واحدة؛ فبينما ركّز بعضهم على الاستفادة من مناهج الغرب في العلوم الطبيعية والسياسية، ذهب آخرون إلى محاولة إخضاع النصوص الدينية نفسها لمناهج النقد الغربي (أبو زيد، ، ١٩٩٠، ص٢٥).

يمكن تلخيص المفاهيم الرئيسة التي يقوم عليها الفكر الحداثي في الآتي:

١. **العقلانية:** جعل العقل مرجعًا أعلى في فهم الكون والإنسان، ونزع القداسة عن النصوص، والنظر إليها كنتاج بشري يخضع للنقد والتأويل.

٢. **النقد:** ممارسة دائمة تهدف إلى كشف البُنى العميقة للأفكار والمؤسسات، سواء كانت دينية أو سياسية.

٣. **النسبية:** رفض الحقائق المطلقة، والتأكيد على أنّ الحقيقة متغيرة بحسب الزمان والمكان وظروف المتلقي.

٤. **التحرر:** الدعوة إلى حرية الإنسان من كل سلطة خارجية، سواء كانت دينية أو اجتماعية، وجعل الفرد مركز العالم.

٥. **التاريخية:** النظر إلى النصوص، بما فيها النصوص المقدسة، بوصفها مشروطة بسياقاتها التاريخية والاجتماعية (حسين،، ٢٠١٠، ص٤٠).

المرجعيات الفكرية للحداثة في التعامل مع النص القرآني

عند انتقال هذه المفاهيم إلى الفكر العربي والإسلامي، شكّلت مجموعة من المرجعيات المنهجية التي اعتمد عليها الحداثيون في قراءة النص القرآني، ومن أبرزها:

- **النقد التاريخي:** الذي يتعامل مع القرآن باعتباره نصًا نشأ في سياق تاريخي محدد، وبالتالي لا يحمل دلالة مطلقة، بل دلالات نسبية مرتبطة بظروف النزول.
- **اللسانيات الحديثة:** التي تنظر إلى النص بوصفه بنية لغوية يمكن تحليلها بمعزل عن مصدرها الإلهي، وهو ما فعله بعض الحداثيين حين حاولوا تأويل القرآن بمنهج بنيوي ولساني صرف.
- **الهرمنيوطيقا:** وهي فلسفة التأويل التي تجعل المعنى غير ثابت، بل متغيرًا باختلاف القارئ وزاوية النظر. وبهذا يصبح النص القرآني مفتوحًا على قراءات لا نهائية، قد تنفصل عن مقاصده الأصلية.
- **فلسفات ما بعد الحداثة:** التي عمّقت نسبية الحقيقة، ورفضت المرجعيات الكبرى، معتبرة أن كل قراءة للنص مشروعة بقدر ما تعكس خبرة القارئ ووعيه (أبو زيد، *مفهوم النص*، ١٩٩٠، ص٣١).ومن خلال هذه النشأة والمفاهيم والمرجعيات، يتضح أن الفكر الحداثي لم يكن مجرد تطور معرفي داخلي في العالم الإسلامي، بل هو وافد من الغرب محمّل بخلفيات فلسفية وأنثروبولوجية تختلف جذريًا عن الأطر المرجعية الإسلامية. وقد أدى استدعاؤه في قراءة النص القرآني إلى بروز إشكالات كبرى، ستُبحث في المطلب التالي من هذا البحث.

المطلب الثالث: ضوابط التعامل مع النص القرآني في التراث التفسيري.

لقد وضع المفسرون آليات التفسير التي لا بدّ للمفسّر، حيث إنّ التشغيل بتفهيم كلام الله تعالى يحتاج إلى التمكّن في كثير من الفنون لعدم وقوعه في الأغلاط الفاحشة في هذه العملية. من جملة هذه الشروط التي أجمعت عليها الأمة وقد تلقاها العلماء بالقبول هو أن يكون الإلمام بعلم الاجتماع بعبارة أخرى المعرفة بأحوال البشر سابقاً وحديثاً، لأنّ مشاكل المجتمع ومطالبه تتجدّد بتغيّر الأزمان والأماكن، قد تكون الحاجة الملحّة في القديم ليس لها أهمية كبرى في الوقت الراهن، لذلك مع تجدّد حاجات المجتمع لابدّ من تجديد في مناهج المفسرين وطرقهم في تعاملهم مع القرآن الكريم. فعلى سبيل المثال ليس من الضروري أن يقف المفسّر المعاصر على مناقشة الآراء حول نظريّة خلق القرآن أو نزوله على سبعة أحرف أو الغوص

في المباحث البلاغية الغامضة التي يستشكل على كثير من الناس في يومنا هذا، بل لا داعية لهذه النقاط في التفسير العصري، حيث البشر يضطرّ إلى الحلول المناسبة ووفاء للاحتياجات في ضوء القرآن الحكيم،

١. قاعدة مراعاة السياق القرآني من أبرز الضوابط في فهم النص القرآني النظر إلى سياقه العام والخاص، سواء كان سياقاً لفظياً داخل الآية أو في ما قبلها وما بعدها، أو سياقاً مقامياً يوضح سبب النزول والظروف المحيطة بالخطاب. فالسياق يُسهم في إزالة الإبهام وتحديد المعنى المراد (الزركشي، ١٩٥٧م، ج١، ص ٣٥٢).

٢. قاعدة فهم القرآن بالقرآن القرآن يُفسر بعضه بعضاً، فما أُجمل في موضع بُيّن في موضع آخر، وما أطلق في موضع قُيّد في غيره، وهذه القاعدة أصل عند المفسرين في ضبط الدلالة (ابن تيمية، ١٤٠٠، ص ٢١)

٣. قاعدة الرجوع إلى السنة النبوية السنة شارحة للقرآن وموضحة لمجمله ومخصصة لعامه ومقيدة لمطلقه، فهي المصدر الثاني لفهم النصوص القرآنية وضبط دلالاتها (الشاطبي، الموافقات، ج٣، ص ٢٩٢).

٤. قاعدة اعتبار اللغة العربية القرآن نزل بلسان عربي مبين، ولا سبيل إلى فهمه إلا باستيعاب أساليب العرب في كلامها، من حقيقة ومجاز، ومن عموم وخصوص، ومن تقديم وتأخير، وغير ذلك من القواعد اللغوية والبلاغية (الطبري، جامع البيان، ج١، ص ٣٩).

٥. قاعدة فهم النص في ضوء مقاصده العامة من أهم الضوابط ربط الآيات بمقاصد الشريعة الكبرى: حفظ الدين، النفس، العقل، النسل، والمال، مما يمنع الانحراف في توجيه النصوص ويحقق الانسجام بين دلالات الآيات ومقاصدها الكلية (الشاطبي، ١٤١٧هـ، ج٢، ص ٩).

٦. قاعدة الجمع بين النصوص وعدم تجزئتهالا يُفهم النص القرآني بمعزل عن باقي النصوص، بل الواجب جمع الآيات المتصلة بالموضوع الواحد للوصول إلى فهم متكامل يرفع التعارض الظاهري (ابن كثير، ١٤٢٠هـ، ج١، ص ١٥).

المبحث الثاني أبرز الإشكالات المنهجية في قراءة القرآن عند الحداثيين

المطلب الأول: إلغاء قداسة النص وتحويله إلى نص بشري.

التَّقدِيس يُطلَقُ في اللغةِ إذًا على معنيَيْن، ففي حقّ الله أطلق وكانَ بمعنى التنزيه، فقولك تقدَّس الله، أي: تنزَّه، فتقدِيسُ الله تنزِيهُهُ كما قاله الخليل بن أحمد الفراهيدي، ومنه سُمِّي اللهُ بالقدُّوس كمَا ورَدَ في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾ [الحَشر: ٢٣]، أي: ننزِّهُك عمّا لا يليقُ بِك. وتُطلَقُ ويرادُ بها التطهِير وهو قريبٌ من المعنى الأول وربما عُبِّر بأحدهما عن الآخر في معاجمِ اللغة (الجرجاني، ٢٠٠٨م، ط١،١/ ٣٥٥)وانطلاقًا من المفهوم اللغوي ورَدَ في القرآنِ عن القرآنِ أنه: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩]، أي: لا يفهمه أو لا يلمسه: (إلا المطهَّرون) على اختلافٍ في تفسير الكلمة؛ نظرًا إلى الاستعمالِ اللغوي والقرآني (العلوني، ٢٠٠٩، . ص٣١)وأمَّا في القرآن، فقد ورَدَت مشتقَّاتُ الكلمة بمفهومٍ قريبٍ من المفهوم اللغويّ، أي: بمعنى التَّنزِيه، والمبارَك، والطُّهْر، والتَّعظيم، والتَّمجيد، في مثل: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، وفي الآية: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ﴾ [الحشر: ٢٣]، وفي الآية: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: ١٢]، وفي غيرها من الآيات (الطبري، .= ٢٠٠٠م،١/ ٥٠٦)وقدسِيّةُ النصّ القرآني راجعةٌ إلى «الخطاب ذاته ومصدره»، حيثُ إنَّ الله –بحسب الصِّفات الجماليَّة والجلالية التي يتصفُ بها– مطلقٌ في الكمال، ومنزَّهٌ عن كلِّ عيبٍ ونُقصان، وهو ما يدعو إلى تقديسِه وتقديسِ ما يصدرُ عنه، وأمَّا بالنسبةِ إلى الخطاب والنصّ الحاوي له، فمِن بابِ الملازَمة. فإنَّ القدسِيَّة بالنسبةِ إلى الله أمرٌ ذاتيٌّ ولا يحتاجُ إلى دليل؛ إذْ إنه مِن قَبِيل القضايا التي قياسها معها؛ ولذلكَ نجد أنَّ القرآن لا يقيمُ دليلًا على صفاتِ الله، وإنما يقيم الدَّليل على وجوده (تعالى)، وبعد ثبوتهِ، فإنه لا يمكن أن يثبت إلا وهو موجِدٌ لجميعِ الصفات، وعليه، فإنَّ الحديثَ القرآني عن صفاتِ الله من باب التَّعريف والإخبار، وأمَّا القدسية بالنسبةِ إلى الآخرين، بما فيهم الأنبياء والمرسلون، فتحتاج إلى الدليل؛ ولذلك نجد في القرآن التركيز على وجوب طاعة النبي –صلى الله عليه وسلم– والتقيُّد بأوامرهِ ونواهيه . (مصطفوي، ٢٠١٧، ص٢٨٠)والحديث عن قداسةِ النصّ القرآني يأخذ أهميته لاعتباراتٍ عدّة، منها بيان حُجج مَن تسمَّى بالمدرسةِ العقليَّةِ الحديثة، التي ترى –في غالبها– أنَّ النصَّ القرآني منذ لحظةِ نزوله تحوَّل من كونه (نصًّا إلهيًّا) وصار فَهْمًا (نصًّا إنسانيًّا). وأنَّ النصَّ كان مقدَّسًا في مستواه الوجودي الأول، أي: وجوده الميتافيزيقي، وهو كذلك حينما أُنزِل منجَّمًا على النبيّ –صلى الله عليه وسلم–، لكن مباشرةً بعد لحظةِ نُزولهِ على النبي –صلى الله عليه وسلم– فَقَدَ قدسيته وصار نصًّا تاريخيًّا، وهو ما عبَّر عنه الطيّب تيزيني بلحظة تقاطع الميتافيزيقا مع التاريخ، عندها مالَ النصُّ إلى التَّشَظِّي التاريخي، وساعته فَقَدَ قدسيته وصار نصًّا تاريخيًّا[الطيب تيزيني، ص١٣٤–١٣٥.]. في حين أنَّ النصَّ القرآني تحوَّل من كونه (نصًّا إلهيًّا) إلى (خطابٍ مُعْجِز) لا يمكن التَّعاطِي معه أو فهمه إلا من خلال خاصيَّة الإعجاز، وهي خاصيَّةٌ قامَت على الخَرْقِ والإبداع بحسَب قواعد اللغة ونظامها (الكريطي، د.ت، ١٢)وقد وَظَّفَ المسلِمونَ وتعاملوا مع النصّ

القرآني باعتباره (مقدَّسًا) في ذاته؛ وذلك لطبيعته: فهو كلامُ الله –عزَّ وجلَّ–، فقدسيته من مصدره، كما أنَّ قدسيته في غايته وهي بيان الحقيقةِ العليا التي هي الأُلوهية كما بيَّنَها هذا النصُّ الكريم. وتوظيف هذا النصِّ والتَّعامُل معه في الحياةِ الإسلامية مما تضمّنه النصُّ ذاته؛ ولذلك حدَّد القرآن كيف يتعامل معه، كما حدَّدَت السُّنة النبوية كيفية التَّعَامُل معه أيضًا، ويكون ذلك عملًا مقدَّسًا؛ أي: عبادة يُؤجَر عليها المسلِم (العمري، ٢٠١٢، ٢٥ويظهر هذا التوظيف المقدَّس –كما قلتُ– في طبيعة هذا النصِّ أوّلًا، وفي مصدره، فالقرآن الكريم كلام الله –عزَّ وجلَّ–، والكلام في المعتقد الإسلامي صفة من صفاتِ الله –عزَّ وجلَّ–، وكما قال شيخ الإسلام ابن تيمية (ت: ٧٢٨): «الكلام صفة المتكلم، والقول صفة القائل، وكلام الله ليسَ بائنًا منه» ،(ابن تيمية، د.ت، (٣/ ١٦٣) وما دام أنَّ النصَّ كلام الله –عزَّ وجلَّ– فلا ينبغي أن يكون التَّعامُل معه كالتَّعامُل مع أيِّ كلامٍ آخر ولا توظيفه أيضًا.من أبرز الإشكالات المنهجية في القراءة الحداثية للقرآن الكريم، الدعوة إلى نزع القداسة عنه والتعامل معه باعتباره نصًّا تاريخيًّا أو ثقافيًّا بشريًّا. فالحداثيون ينطلقون من فرضية أنّ النص القرآني لا يحمل طبيعة متعالية أو ميتافيزيقية، بل هو ظاهرة لغوية حدثت في سياق اجتماعي وثقافي محدَّد. ومن هنا يُنزَع عنه طابع الإلزام والمرجعية الدينية، ليُصبح نصًّا قابلًا للأخذ والردّ كغيره من النصوص البشرية(أبو زيد، ، ط١، ص١٤٩)وقد صرّح علي حرب بوضوح أنّ من أهداف القراءة الحداثية نزع صفة التعالي والقداسة عن النص القرآني، معتبرًا أنّ أي قراءة نقدية تاريخية لا يمكن أن تتم من دون هذه الخطوة (حرب، ٢٠٠٥، ٧٧) وأكّد هاشم صالح، مترجم كتب أركون، أنّه آن الأوان لإنزال القرآن من تعاليه الفوقي إلى الواقع الأرضي المحسوس، وكشف تاريخيته المرتبطة بظروف القرن السابع الميلادي. وهذا الموقف يتبناه أيضًا نصر حامد أبو زيد الذي يرى أنّ النص القرآني، رغم مصدره الإلهي، يبقى نصًّا لغويًّا خاضعًا لمناهج النقد الأدبي(صالح، ٢٠١٠، ٣٧٥)ويبيّن الباحثون أنّ هذا التوجّه الحداثي يؤدّي إلى أنسنة النص القرآني وتحويله إلى "وثيقة تاريخية"، وبالتالي إخضاعه للأدوات نفسها التي استُعملت في نقد التوراة والإنجيل. وهو ما يفضي إلى إسقاط خاصية الإعجاز والتميّز الذاتي للنص، ويفتح الباب أمام التشكيك في بنيته ودلالاته، بل وحتى في ثبوته(مصطفوي، ٢٠٠٥، ٧٧)

المطلب الثاني: القراءة السياقية المتحررة من قواعد اللغة العربية.

من أبرز الإشكالات المنهجية في القراءة الحداثية للقرآن أنّها تتعامل معه باعتباره نصًا أدبيًّا أو تاريخيًّا بشريًّا، يخضع للعقل النقدي والتجريب الفلسفي دون أيّ قداسة أو خصوصية معرفية. ولهذا فإنّهم يستبعدون السنّة النبوية والآثار التفسيرية، بل ويُقصونها بالكلية من العملية التفسيرية. وهذا الموقف يتعارض مع المنهج الأصيل الذي يقوم على التفسير بالقرآن ثم بالسنة ثم بأقوال الصحابة والتابعين.يقول طيّب تيزيني عن النصِّ القرآني من أنّه «نصٌّ لغويٌّ تاريخيٌّ مثل أيّ نصٍّ آخر، وكونه ذا أصل إلهيّ لا يتيح النَّظر إليه على أنه ذو خصوصية منهجية تنأى به عن مناهج البحث العلمي المعتادة، لتلحّ على منهجٍ إلهيٍّ خاصٍّ به»[٢٣]. ولا يخفى التَّصور الجليّ الذي ينطلقُ منه تيزيني في نظرته للقرآنِ الكريم، وعدم تحرُّجه من إخضاعه لمطارقِ النَّقد، كأيِّ نصٍّ آخر؛ لأنه يرى أنَّ القدسيَّة ليست خاصيَّة ذاتيَّة في القرآن الكريم، بل هي خاصيَّة مضفاة عليه في التَّاريخ.وحاصل الأمر في تصوّراتهم أن يصبح «القرآن موضوعًا للتساؤلات النَّقدية المتعلِّقة بمكانته اللغوية، والتاريخية، والأنثروبولوجية، والثيولوجية الفلسفية»[٢٤]، وهذا يقتضي في نظر أركون «معاملة مزدوجة: فأوّلًا ينبغي القيام بنقدٍ تاريخي لتحديد أنواع الخلط والحذف والإضافة والمغالطات التَّاريخية التي أحدثتها الروايات القرآنية بالقياسِ إلى معطيات التَّاريخ الواقعي المحسوس. وثانيًا: ينبغي القيام بتحليل التبيين كيف أنَّ القرآن ينجز أو يبلور شكلًا ومعنى جديدًا»[٢٥].وإذا كان أركون قد نزَعَ منزع المماثلة بينَ القرآن الكريم ونصوص التَّوراة والأناجيل من حيث طروء التَّحريف والتبديل، انطلاقًا من إثارة إشكال التَّدوين، والانتقال من الشَّفاهي والكتابي، وتدخّل السّلطة الرسمية في الحذفِ والإضافة، فإنَّ نصرًا ينزعُ إلى مماثلة موازية هي التسوية بينَ النصِّ الإلهي والنصِّ البشري باعتبارهما نصًّا لغويًّا خاضعًا لمطارق النَّقد الأدبي، يقول: «إنَّ النصَّ القرآني وإن كان نصًّا مقدَّسًا إلا أنه لا يخرج عن كونه نصًّا؛ فلذلك يجب أن يخضع لقواعد النَّقد الأدبي كغيره من النُّصوص الأدبية»[٢٦].ويقول أيضًا: «إنَّ أُلوهية مصدر النصِّ لا تنفي واقعية محتواه ولا تنفِي –مِن ثمَّ– انتماءَه إلى ثقافة البَشَر»[٢٧].في حين أنَّ أُلوهية مصدر النصِّ لا تنفِي واقعية محتواه، وهذا حقٌّ لا ريبَ فيه، ولكنها تنفِي انتماءَه إلى ثقافة البَشَر بالمعنى الذي يقصده أبو زيد وأضرابه، أو تنفِي أن يكونَ من إنتاجِهم، من غير أن تنفِي ملاءَمَته لهم وصلاحيته في أن يكون ثقافةً للبَشر. وهذا أمر كان يجب على نصر حامد أنْ يجعله فرقًا ويقيمه بينَ الأطروحتَيْن: أطروحةُ واقعيةِ النصِّ، وأطروحةُ انتماءِ النصِّ إلى ثقافة البَشَر، واللتان تعنيان أنَّ البَشَر هم الذين يصنعونَ نصوصهم في مختبر أنساقهم الثَّقافية واللغوية.وفي معرِضِ تعليقه على أطروحة أبو زيد، يقول العيَّاشي: «ولذا نجد أنَّ القرآن إزاء هذا الأمر، يقول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ﴾، (أي لو كان ينتمي إلى ثقافةِ البَشَر) ﴿لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]. وكأنَّ هذه القضية كانت قد طُرحت في زمنِ نزولِ القرآن؛ فرَدَّ القرآن عليهم في هذا إزالةً للبس، ولا ندري كيف فات هذا الأمر نصر حامد أبو زيد»[٢٨].المطلب الثالث: اعتماد المناهج الهرمنيوطيقية

الغربية دون نقد.من سمات القراءة الحداثية أنّها تتبنى مناهج غربية في تفسير النصوص (هرمنيوطيقا، بنيوية، ماركسية، تاريخانية، نظرية التلقي...)، وتقوم بمزجها على نحو متناقض دون نقد علمي أو تمحيص. فتجد الكاتب الواحد يجمع بين البنيوية والماركسية مثلًا، مع أنّ الأولى ظهرت لهدم الثانية. ويسمي محمد أركون هذا التوجه بالـ"منهج متعدد الاختصاصات"، ويبرره بأنّه يفتح المجال أمام قراءة جديدة للنص الديني. لكنه في الواقع لا يعدو كونه لامنهجًا يفضي إلى العبثية الفكرية.هذا التشتت في المناهج الحداثية يُذكّر بما دعا إليه الفيلسوف الغربي بول فيرابند في كتابه ضدّ المنهج، حيث أنكر العقل والموضوعية، ودعا إلى إعادة الاعتبار للتنجيم والأساطير. وقد تأثر أركون بمثل هذه الطروحات، فراح ينظر للقرآن باعتباره نصًا يحمل سمات الفكر الأسطوري ويستعيد أنماطه. وهو ما يثير التساؤل: هل يُعقل أن يُقرأ كلام الله عز وجل بهذه الأدوات الفلسفية الغربية المتناقضة، التي نشأت أصلًا في سياق أزمة الفكر الغربي مع الدين والعقل؟وعلى النقيض من ذلك، نجد أنّ حتى الفرق الإسلامية المنحرفة (الخوارج، المعتزلة، الشيعة) التزمت بمنظومات فكرية منسجمة، بينما جاءت القراءة الحداثية خليطًا من الفلسفات الدخيلة، لا يجمعها إلا الاضطراب والتناقض.يرى أنصار هذا الاتجاه أنَّ الهرمنيوطيقا تعد محاولة ذات أهمية لتجاوز أزمة القراءة التقليدية للنصوص الدينيّة الإسلامية، فالنص الديني بحكم منشئه ووظيفته أكثر النصوص إثارة للإشكاليات والأسئلة، ممّا يجعله نصاً يكتنفه الغموض، فيأتي دور الهرمنيوطيقا لتخلع عليه رحابة في الفهم تخلّصه من ذلك التفسير الوحيد الذي رعته مؤسسة الإسلام التقليدية كما يُقدّم في كتب ومدوّنات التفسير التاريخية. (ألحيان، ١)ومن أنصار هذا الاتجاه عدد غير قليل من مفكّري الإسلام المعاصرين من أمثال:محمد أركون، والطيب تيزيني، وحسن حنفي، وعلى حرب، ونصر حامد أبوزيد، وعبد المجيد الشرفي، وعبدالكريم سروش، ومحمد مجتهد شبستري وغيرهم. وسوف نتناول بالتفصيل هنا موقف كل من نصر حامد أبوزيد ومحمد مجتهد شبستري كأنموذجٍ لممثّلي هذا الاتجاه.مثلا يقرّر شبستري أنّ هدفه من تطبيق الهرمنيوطيقا الفلسفية العقلانية على النص القرآني لن يتيسّر له التحقّق إلا إذا آمنا بأن فهم النص القرآني خاضع هو أيضاً للهرمنيوطيقا الفلسفية، ولا يتسنّى له ذلك إلا إذا أبرز شواهد وأدلة كافية على إنسانية التخاطب اللغوي الموجود في القرآن. وهذه هي المهمة التي اضطلع بها شبستري وحاول أن يبرهن على أنّ النص القرآني كلام إنساني صادر عن النبي بوحي إلهي! وهو بذلك على خلاف تام في ما يتعلّق ببحث حقيقة الوحي عند عموم المسلمين، حيث يذهب عموم المسلمين إلى الاعتقاد بأنّ القرآن كلام الله، وأنّ النبي قد تلقى هذا الوحي الإلهي، وأبلغه إلى الناس، فالقرآن هو نص إلهي، وأنّ الله هو المتكلّم بألفاظه وهو الذي أملى مفرداته، وأنّ الألفاظ والمعاني القرآنية منسوبة إليه، وأنّ النبي مجرّد ناقل لكلامه، فهو وسيط بين الله والناس في نقل رسالته إليهم. إلا أن مجتهد شبستري يرفض هذا التفسير للوحي صراحة، ويدّعي أنّ شخص النبي هو صاحب النص القرآني، وأن القرآن بألفاظه ومعانيه هو كلام النبي، بل يذهب حتى إلى القول بأنا لنبي الأكرم نفسه لم يدع بأنّ آيات القرآن وألفاظه هي من الله، بل كان يقول بأن القرآن إنّما هو كلامه! (واعظي، ٢٠١٣، ص ٣٥٩)ولا شك أنّ كلام شبستري ونظرته إلى النص القرآني بوصفه «فعل قولي» للنبي يخبر فيه عن مراد الوحي الإلهي، وأنّ الآيات القرآنية الموجودة بين دفتي المصحف إنّما هي فهم وتفسير النبي وقراءته عن الكون، وأنّ القرآن كي يكون مفهوماً من البشر لابد أن يكون المتكلّم به من بني البشر، أقوال عارية تماماً عن الصحة بإجماع المسلمين في كل زمان ومكان، كما أنّ أدلّته التي يسوقها للتدليل على أقواله تشكو من الضعف والفتور والسطحية. فالقرآن الكريم كلام الله الموحى إلى رسوله، والألفاظ والمعاني القرآنية منسوبة إلى الله وحده، وأنّ النبي مجرّد ناقل لكلامه دون تدخّل أو تصرّف، فهو وسيط بين الله والناس. ولا أعلم كيف يستقيم فهم شبستري هذا ما صريح الآيات القرآنية التي تدلّ على عكس ما يراه شبستري، من قبيل: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّه﴾[سورة الأنعام- الآية ٣٤]وقوله تعالى:﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ (سورة الكهف، الآية ٢٧)ويعد هذا الرأي الذي يتمسّك به شبستري نفسه –أنّ النبي مجرّد ناقل للوحي– رأي غاية في السطحية؛ لأن دور النبي صلى الله عليه وآله سلم لم يقتصر على إيصال القرآن وتبليغه إلى الناس كما يزعم شبستري، وإنّما قام ببيان التعاليم الإلهية والحقائق الإيمانية للناس، وإتمام مكارم الأخلاق، وإقامة القدوة الحسنة للبشر، وتقوية وترسيخ الأسس الإسلامية، وبسط الثقافة الإيمانية والتوحيدية، ونفي الشرك وعبادة الأوثان، وإعلاء كلمة الله، والإشراف على تربية نفوس المسلمين وتزكية المؤمنين وتعليمهم الكتاب والحكمة. وجميع هذه الأمور التي تمثّل جوهر البعثة لا تتنافى مع كون القرآن كلاماً إلهياً، بل إنّ تناغم وانسجام هذه الأمور مع كونه مبعوثاً من قبل الله وكونه حاملاً لرسالته لا يبقي مجالاً للشك أو الترديد. (واعظي، ٢٠١٣، ص ٣٧٤)وبذلك يصبح المشروع الهرمنيوطيقي عند شبستري كما عند غيره من أصحاب هذا الاتجاه، محاولة لتجاوز كل تفسير ديني ينتمي إلى التراث الديني بغية التفاعل المباشر مع النص القرآني، وذلك عبر الإجابة عن السؤال المركزي: هل الإنسان هو الذي يستنتج المعنى أم أنّ المعنى مُعطى مقدّس؟ وطالما أنّ الإنسان هو الذي يستنتج المعنى من النص فعليه أن يزيح النص من المركزية كما دأبت على ذلك التفسيرات التقليدية ويضع بدلاً منه العقل الإنساني كمركزية فاعلة، ومن ثم يمكّن العقل أن يسعى إلى الانفتاح على الفهم الذاتي والتأويل المختلف، وبهذا –وعلى حد قول أحد الباحثين– «تكون «الأنسنة» شرطاً للتأويل،

ويكون التأويل شكلاً للأنسنة» (كيحل، ٢٠١١، ص ٥٢)بدت الهرمنيوطيقا ملائمة جداً للنص الأدبي والعمل الفني الإبداعي، فهي نصوص مفتوحة على جميع التأويلات قابلة لكثرة التفسيرات وتنوّع المعاني، فلا ضير أبداً في أن تتعدّد معاني النص بتعدّد قراءاته، بل بالعكس فهذا إثراء خلاّق للعمل الإبداعي البشري، في حين أنّ الهرمنيوطيقا بدت غير ملائمة تماماً للنص الديني المقدّس غير القابل للاختلاف والتعدّد اللانهائي، وإن تذرّع أحدهم باختلاف الفقهاء فيمكن الردّ عليه بأنّ أحكام الفقهاء تابعة لجلب المصالح ودرء المفاسد. فإذا كانت الظروف والموضوعات واحدة فالحكم واحد لا يتغيّر.

المبحث الثالث الإشكالات التأويلية والتطبيقية

المطلب الأول: التأويل الرمزي المفرط وإلغاء المعنى الظاهر

يُعَدّ التأويل الرمزي المفرط من أبرز سمات القراءة الحداثية للقرآن، حيث يتجاوز الحداثيون الدلالة الظاهرة للنصوص إلى معانٍ رمزية وباطنية لا تستند إلى أصول التفسير المعتبرة. إذ يرون أنّ المعنى الظاهر مجرد "سطح" أو "قشرة" تخفي وراءها رسائل أعمق ترتبط بالسياق الثقافي والاجتماعي. ويُلاحظ ذلك بوضوح عند نصر حامد أبو زيد، الذي اعتبر النص القرآني "خطابًا ثقافيًا" نشأ ضمن بيئته التاريخية واللغوية، وبالتالي ففهمه يتطلب الغوص في الرموز والإيحاءات أكثر من التمسك بالدلالة المباشرة (أبو زيد، ١٩٩٠، ص ٢٥–٢٨). ويرى النقاد أنّ هذا الاتجاه يؤدي عمليًا إلى تعطيل الهداية القرآنية، وإلغاء مرجعية النص كدستور تشريعي وعقائدي، إذ يُترك المجال لتأويلات متباينة قد تصل إلى التناقض، وهو ما يهدد وحدة الفهم الديني.

المطلب الثاني: إسقاط القراءات المعاصرة على النص دون ضابط

يذهب كثير من المفكرين الحداثيين إلى اعتبار النص القرآني "مرنًا" بحيث يمكن أن يُعاد تفسيره باستمرار وفق حاجات الواقع الراهن. وهذا التوجه، وإن كان يُظهر رغبة في تفعيل النص في الحياة المعاصرة، إلا أنّه كثيرًا ما يتم بلا ضابط علمي من علوم التفسير وأصول الفقه. فقد دعا محمد أركون إلى قراءة القرآن في ضوء معايير الفكر الغربي الحديث، معتبرًا أنّ النص مفتوح على كل القراءات الممكنة، بما فيها العلمانية والتاريخانية والأنثروبولوجية (أركون، ٢٠٠٥، ص ٤٢–٤٦). وهنا يبرز الإشكال؛ إذ يتحول النص إلى "مرآة" تُعكس عليها تصورات معاصرة، مثل الحرية الفردية المطلقة أو المادية الجدلية، دون التزام بالمنهجية الإسلامية في فهم النصوص. وهذا يُفقد القرآن خصوصيته كمصدر للوحي، ويجعله خاضعًا لتقلبات الفكر الإنساني المتغير.

المطلب الثالث: الانتقائية في التعامل مع النصوص لخدمة أيديولوجيا معينة

تُعَدّ الانتقائية من أكثر الإشكالات وضوحًا في التعامل الحداثي مع القرآن. إذ يتم توظيف بعض الآيات أو المقاطع القرآنية لدعم موقف فكري أو أيديولوجي، مع إغفال أو تجاهل نصوص أخرى قد تقيّد أو توازن تلك المعاني. فعلى سبيل المثال، يوظّف حسن حنفي في مشروعه "التراث والتجديد" نصوصًا قرآنية تتحدث عن العدل والشورى ليؤسس لفكر سياسي معاصر، لكنه يتجاهل آيات أخرى تحدد معالم النظام السياسي الإسلامي بضوابط عقدية وتشريعية (حنفي، ١٩٨٠م، ص ١١٢–١١٥). هذا المنهج يفتقر إلى التوازن الذي يميز القرآن في تناوله للموضوعات، حيث يُبنى المعنى القرآني على التكامل بين النصوص لا على الانتقاء. وبالتالي فإن الانتقائية تُحوِّل النص إلى أداة لخدمة غايات أيديولوجية أو سياسية، بدلًا من أن يكون مصدرًا موضوعيًا للهداية والتشريع.

المبحث الرابع المناقشة النقدية وضوابط الفهم الصحيح

المطلب الأول: القواعد التفسيرية المستمدة من علوم القرآن

إنّ التصدي للإشكالات الحداثية في تفسير القرآن لا يكون إلا بالرجوع إلى الأصول العلمية الراسخة التي أرساها علماء الأمة عبر علوم القرآن وعلوم التفسير. فقد حدد العلماء ضوابط دقيقة لفهم النص، مثل مراعاة أسباب النزول، ومعرفة الناسخ والمنسوخ، وفهم دلالات الألفاظ في ضوء لسان العرب، إلى جانب النظر في مقاصد الشريعة. وهذه القواعد ليست قيودًا على الفهم، بل هي أدوات علمية تحفظ النص من العبث والتأويل المنفلت. وقد نصّ السيوطي في الإتقان في علوم القرآن على أنّ هذه العلوم تشكّل سياجًا ضروريًّا لحماية التفسير من الانحرافات (السيوطي، ، ٢٠٠٣م.، ج١، ص ١٢٠–١٢٥). وبذلك يظهر أنّ أي قراءة تتجاوز هذه الأصول محكوم عليها بالخلل والاضطراب.

المطلب الثاني: أهمية الجمع بين ظاهر النص وروحه وفق منهج السلف

أثبتت التجربة التاريخية في التفسير أنّ الاقتصار على ظاهر النص دون استحضار مقاصده، أو العكس، يؤدي إلى خلل في الفهم. منهج السلف الصالح تميّز بالجمع بين ظاهر النصوص ومعانيها العميقة المرتبطة بروح الشريعة ومقاصدها، وهو ما يوازن بين الحرفية والرمزية. يقول ابن تيمية: "الواجب أن يُفسر كلام الله بما دل عليه كلامه وكلام رسوله، لا أن يُحمَّل ما لا يحتمل" (١٩٨٦م، ص ٦٧). فالفهم الصحيح لا يلغي الظاهر ولا يكتفي بالباطن، بل يوازن بينهما وفق الضوابط الشرعية، مما يمنع الإفراط الذي وقع فيه الحداثيون عبر التأويل الرمزي المفرط، كما يمنع الجمود الحرفي الذي يُفقد النص روحه ومقصده.

المطلب الثالث: الضمانات العلمية لسلامة التعامل مع النص القرآني

توجد جملة من الضمانات التي تكفل سلامة التفسير وصيانته من الانحراف، من أبرزها: التمسك بالمنهجية التفسيرية التي تجمع بين النقل والعقل، الاعتماد على ما صحّ من أقوال السلف، الاستفادة من المقاصد الشرعية في ضبط الفهم، والتزام الانضباط اللغوي والبلاغي في تفسير الألفاظ. كما أنّ التفسير الجماعي والاجتهاد المؤسسي يعدان من الضمانات المهمة، حيث يقلل من خطر التفرّد والانزلاق في القراءات الفردية المؤدلجة. وقد أشار الشاطبي إلى هذا المبدأ في الموافقات حين أكّد أنّ "النظر في الشريعة لا يكون فرديًّا صرفًا، بل لا بد فيه من الرجوع إلى أهل العلم والرسوخ" (الشاطبي، ١٩٩٧م، ج٣، ص ٢٨٩). ومن ثمّ، فإن ضمانات الفهم الصحيح تقوم على الجمع بين الأصالة المنهجية والانفتاح الواعي على الاجتهاد، بما يحفظ للنص قدسيته ويُبقيه مصدرًا للهداية.حتى يكون التعامل مع النص القرآني سليمًا وبعيدًا عن الانحرافات التأويلية التي وقع فيها بعض الاتجاهات الحداثية، لا بد من الالتزام بجملة من الضمانات العلمية، من أبرزها:

١. الالتزام بالمنهج التفسيري الموروث: الاستناد إلى ما قرره العلماء من أصول التفسير وقواعد علوم القرآن، مثل مراعاة أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، ودلالات الألفاظ.

٢. الرجوع إلى أقوال السلف: اعتماد ما ثبت عن الصحابة والتابعين وأئمة التفسير الأوائل، باعتبارهم الأقرب إلى عصر التنزيل والأعلم بمراد النص.

٣. الانضباط اللغوي والبلاغي: تفسير الآيات وفق قواعد اللغة العربية وأساليبها البلاغية، باعتبارها الوعاء الأصلي للخطاب القرآني.

٤. مراعاة المقاصد الشرعية: عدم الاكتفاء بالمعنى الجزئي للنصوص، بل قراءتها في ضوء مقاصد الشريعة الكلية كالعدل والرحمة وحفظ الدين والنفس والعقل والمال والعِرض.

٥. الجمع بين النقل والعقل: اعتماد النصوص الشرعية مع توظيف العقل السليم في الفهم، بحيث يكون العقل خادمًا للنقل لا مُقدَّمًا عليه.

٦. التفسير الجماعي والاجتهاد المؤسسي: الاستفادة من جهود المجامع الفقهية واللجان العلمية في تفسير القضايا المعاصرة، للحد من الفردية التي قد تجر إلى التأويلات المنحرفة.

٧. التحقق من المقاصد والنتائج: فحص التفسير من حيث انسجامه مع العقيدة الإسلامية ومقاصد الوحي، وعدم تناقضه مع النصوص القطعية.

وبذلك تتكامل هذه الضمانات لتشكل سياجًا معرفيًا يحفظ القرآن الكريم من التلاعب، ويضمن أن يظل مصدرًا للهداية والتشريع، لا أداة للتوظيف الأيديولوجي أو الإسقاطات الحداثية.

الخاتمة

بعد استعراض الإطار المفاهيمي والمصطلحي المرتبط بعلوم القرآن والفكر الحداثي، والوقوف على أبرز الإشكالات المنهجية والتأويلية التي تميز مقاربة الحداثيين للنص القرآني، يتضح أنّ جوهر الخلل يكمن في التعامل مع القرآن بعيدًا عن قدسيته ووظيفته الأصلية، وتحويله إلى نص بشري أو ثقافي مفتوح على كل القراءات، بما يفرغ دلالاته من مرجعيتها الإلهية. وقد تجلى ذلك في محاولات إلغاء المعنى الظاهر لصالح التأويل الرمزي المفرط، أو إسقاط القراءات المعاصرة بلا ضابط، أو ممارسة الانتقائية خدمةً لأيديولوجيات معينة.

وفي مقابل هذه الانحرافات المنهجية، أكدت الدراسة أنّ ضمان الفهم الصحيح للنص القرآني يقتضي التمسك بالقواعد التفسيرية التي أرساها علماء الأمة عبر علوم القرآن، والجمع بين ظاهر النص وروحه وفق منهج السلف، والالتزام بجملة من الضمانات العلمية التي تحمي النص من العبث وتضمن بقاءه مصدرًا للهداية والتشريع.

ومن خلال هذا العرض، يتبين أن التوازن بين الأصالة والمعاصرة هو السبيل الأمثل للتعامل مع النص القرآني؛ حيث لا يُترك فريسة للقراءات الحداثية المتفلتة، ولا يُحصر في جمود حرفي يقطع صلته بالواقع. بل إن المنهج الأقوم هو الذي يجمع بين الانضباط العلمي المستمد من التراث التفسيري، والانفتاح الواعي على حاجات العصر، ضمن أفق مقاصدي يحفظ قدسية النص وفاعليته الحضارية.

وبهذا، يكون البحث قد كشف عن طبيعة الإشكالات الحداثية في قراءة القرآن، واقترح في المقابل الضوابط المنهجية الكفيلة بترشيد الفهم، بما يحقق الغاية الكبرى من الوحي، وهي هداية الإنسان وبناء الحياة وفق القيم الربانية.

النتائج

١. يتأسس الفكر الحداثي في تعامله مع القرآن على مرجعيات غربية (تاريخانية، هرمنيوطيقية) لا تنسجم مع خصوصية النص القرآني.

٢. أبرز مظاهر الانحراف في القراءة الحداثية: إلغاء قداسة النص، والتأويل الرمزي المفرط، وإسقاط القراءات المعاصرة، والانتقائية لخدمة الأيديولوجيا.

٣. هذه المناهج تفضي إلى تفريغ النص من معناه الشرعي، وتحويله إلى نص ثقافي خاضع للتأويلات اللانهائية.

٤. علوم القرآن بما تحويه من قواعد (أسباب النزول، الناسخ والمنسوخ، دلالات الألفاظ، مقاصد الشريعة) تمثل الضمانة الأساسية لصيانة النص.

٥. الجمع بين ظاهر النص وروحه وفق منهج السلف يحقق التوازن بين الحرفية والرمزية، ويمنع الإفراط والتفريط

٦. الضمانات العلمية مثل التفسير الجماعي، الانضباط اللغوي، والرجوع إلى المقاصد، تكفل سلامة الفهم وتقي من الانحرافات التأويلية.

التوصيات

١. ضرورة تعزيز الدراسات القرآنية التي تكشف عن جذور الفكر الحداثي ومصادره الغربية، ومقارنته بالمناهج الأصيلة في التفسير.

٢. العناية بتدريس قواعد علوم القرآن وأصول التفسير في الجامعات والمعاهد الشرعية لضبط الفهم المعاصر للنص.

٣. إعداد مشاريع تفسيرية جماعية مؤسسية لمواجهة القراءات الفردية والانتقائية.

٤. تفعيل منهج المقاصد في التفسير باعتباره أداة منهجية تحقق التوازن بين ظاهر النص وروحه.

٥. إنتاج دراسات نقدية متخصصة تفضح الإشكالات التأويلية للحداثيين، مع تقديم البدائل العلمية المنضبطة.

٦. الدعوة إلى قراءة معاصرة للقرآن تستفيد من منجزات العصر دون أن تفقد النص قدسيته ووظيفته الإلهية.

المصادر والمراجع:

القران الكريم

١. أبو زيد، نصر حامد .النص والسلطة والحقيقة .الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٥.

٢. ألحيان، محمد .الهرمنيوطيقا: محاولة لتجاوز أزمة القراءة التقليدية للنص القرآني .الرباط، ٢٠١٥.

٣. أركون، محمد .قراءات في القرآن .ترجمة هاشم صالح، بيروت: دار الطليعة، ٢٠٠٥.

٤. ابن تيمية، تقي الدين .مقدمة في أصول التفسير .تحقيق عدنان زرزور، الرياض: مكتبة المعارف، ١٩٨٦.

٥. الشاطبي، إبراهيم بن موسى .الموافقات في أصول الشريعة .بيروت: دار المعرفة، ١٩٩٧.

٦. الزركشي، محمد بن أحمد .البرهان في علوم القرآن .بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨.

٧. السيوطي، جلال الدين .الإتقان في علوم القرآن .بيروت: دار الفكر، ١٩٩٤.

٨. حسين، محمد عبد الله .نقد التراث وإشكالية التجديد في الفكر الإسلامي المعاصر .القاهرة: دار الفكر، ٢٠١٠.

٩. حنفي، حسن .التراث والتجديد: موقفنا من التراث القديم .القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٠.

١٠. العلواني، طه جابر .تفسير القرآن بالقرآن .فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠٢٠.

١١. العمري، مرزوق .إشكالية تاريخية النص الديني في الخطاب الحداثي العربي المعاصر .بيروت: منشورات ضفاف، ٢٠١٢.

١٢. مصطفوي، محمد .أساسيات المنهج والخطاب في درس القرآن وتفسيره .بيروت: مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، ٢٠١٧.

١٣. كيحل، مصطفى .الأنسنة والتأويل في فكر محمد أركون .الجزائر: منشورات الاختلاف، ٢٠١١.

١٤. حرب، علي .نقد النص .الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٥.

١٥. واعظي، أحمد. "الهرمنيوطيقا المعاصرة والنصوص الدينية: رؤية نقدية لمفهوم محمد مجتهد شبستري ".مجلة قضايا إسلامية معاصرة، مركز دراسات فلسفة الدين، بغداد، السنة السابعة عشرة، العدد ٥٣-٥٤، ٢٠١٣.

١٦. الجرجاني، عبد القاهر .درج الدرر في تفسير الآي والسور .تحقيق وليد بن أحمد الحسين وإياد عبد اللطيف القيسي، بريطانيا: مجلة الحكمة، ٢٠٠٨.

١٧. الطبري، محمد بن جرير .جامع البيان في تأويل القرآن .تحقيق أحمد محمد شاكر، بيروت: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٠.

List of sources and references

The Holy Qur'an.

1. Abu Zayd, Nasr Hamid. Al-Nass wa al-Sulta wa al-Haqiqa [Text, Authority, and Truth]. Casablanca: Al-Markaz al-Thaqafi al-'Arabi, 1995.
2. Al-Hayyan, Muhammad. Al-Hermeneutics: Attempt to Transcend the Crisis of Traditional Reading of the Qur'anic Text. Rabat, 2015.
3. Arkoun, Mohammed. Readings in the Qur'an. Translated by Hachem Saleh, Beirut: Dar al-Tali'a, 2005.
4. Ibn Taymiyyah, Taqi al-Din. Muqaddima fi Usul al-Tafsir [Introduction to the Principles of Qur'anic Exegesis]. Edited by Adnan Zarzur, Riyadh: Maktabat al-Ma'arif, 1986.
5. Al-Shatibi, Ibrahim ibn Musa. Al-Muwafaqat fi Usul al-Shari'a [Reconciliation in the Fundamentals of Islamic Law]. Beirut: Dar al-Ma'rifa, 1997.
6. Al-Zarkashi, Muhammad ibn Ahmad. Al-Burhan fi 'Ulum al-Qur'an [The Proof in the Sciences of the Qur'an]. Beirut: Dar al-Kutub al-'Ilmiyya, 1988.
7. Al-Suyuti, Jalal al-Din. Al-Itqan fi 'Ulum al-Qur'an [The Perfect Guide to the Sciences of the Qur'an]. Beirut: Dar al-Fikr, 1994.
8. Hussein, Muhammad Abdullah. Naqd al-Turath wa Ishkaliyat al-Tajdid fi al-Fikr al-Islami al-Mu'asir [Critique of Heritage and the Problematic of Renewal in Contemporary Islamic Thought]. Cairo: Dar al-Fikr, 2010.
9. Hanafi, Hassan. Al-Turath wa al-Tajdid: Mawqifuna min al-Turath al-Qadim [Heritage and Renewal: Our Position towards the Ancient Heritage]. Cairo: Maktabat al-Anglo al-Misriyya, 1980.
10. Al-Alwani, Taha Jabir. Tafsir al-Qur'an bil-Qur'an [Qur'an Interpretation through the Qur'an]. Virginia: International Institute of Islamic Thought, 2020.
11. Al-Umari, Marzouq. Ishkaliyyat Tarikhiyyat al-Nass al-Dini fi al-Khitab al-Hadathi al-'Arabi al-Mu'asir [The Historicity Problem of the Religious Text in Contemporary Arab Modernist Discourse]. Beirut: Difaaf Publications, 2012.
12. Mostafavi, Muhammad. Asasiyyat al-Manhaj wa al-Khitab fi Dars al-Qur'an wa Tafsirih [Fundamentals of Methodology and Discourse in the Study and Interpretation of the Qur'an]. Beirut: Markaz al-Hadara li-Tanmiyat al-Fikr al-Islami, 2017.
13. Kihal, Mustafa. Al-Insana wa al-Ta'wil fi Fikr Muhammad Arkoun [Humanization and Interpretation in the Thought of Mohammed Arkoun]. Algiers: Ikhtilaf Publications, 2011.
14. Harb, Ali. Naqd al-Nass [Critique of the Text]. Casablanca: Al-Markaz al-Thaqafi al-'Arabi, 2005.
15. Wa'izi, Ahmad. "Al-Hermeneutics al-Mu'asira wa al-Nusus al-Diniyya: Ru'ya Naqdiyya li Mafhum Muhammad Mujtahid Shabestari" [Contemporary Hermeneutics and Religious Texts: A Critical View of the Concept of Muhammad Mojtahed Shabestari]. Majallat Qadaya Islamiyya Mu'asira, Center for the Study of Philosophy of Religion, Baghdad, vol. 17, no. 53–54, 2013.
16. Al-Jurjani, Abd al-Qahir. Daraj al-Durar fi Tafsir al-Ay wa al-Suwar [The Beads of Pearls in the Exegesis of Verses and Chapters]. Edited by Walid ibn Ahmad al-Hussein and Iyad Abd al-Latif al-Qaysi, Britain: Al-Hikma Magazine, 2008.
17. Al-Tabari, Muhammad ibn Jarir. Jami' al-Bayan fi Ta'wil al-Qur'an [The Comprehensive Exposition in the Interpretation of the Qur'an]. Edited by Ahmad Muhammad Shakir, Beirut: Al-Risala Foundation, 2000.